Among the Righteous
Lost Stories from the Holocaust's Long Reach into Arab Lands

Robert Satloff

Copyright © 2006 by Robert Satloff

Published in the United States by PublicAffairs™, a member of the Perseus Books Group.

No part of this book may be reproduced in any manner whatsoever without written permission except in the case of brief quotations embodied in critical articles and reviews. For information, address PublicAffairs, 250 West 57th Street, Suite 1321, New York, NY 10107.

PublicAffairs books are available at special discounts for bulk purchases in the U.S. by corporations, institutions, and other organizations. For more information, please contact the Special Markets Department at the Perseus Books Group, 11 Cambridge Center, Cambridge, MA 02142, call (617) 252-5298, or e-mail special.markets@perseusbooks.com

روبرت ساتلوف

من بين الشرفاء: القصص الضائعة من اختراق المحرقة النازية في الأراضي العربية.

الفصل الخامس
"العرب يحرسون اليهود"

في كل مرحلة من مراحل الاضطهاد النازي والفيشي والفاشي لليهود في الأراضي العربية، وفي كل مكان كان مسرحًا لهذا الاضطهاد، حرص العرب على تقديم يد العون والمساعدة لليهود. فمن العرب من اعترض على اضطهاد اليهود واتخذ موقف الوحدة معهم. ومنهم من استنكر تقديم الدعم والمساعدة، الأمر الذي أدى إلى زيادة القوة الدافعة للحملة المعادية لليهود. والبعض الآخر من العرب شارك اليهود في مصيرهم، ومن خلال هذه التجربة تكون رباط رفقة من نوع فريد بين الجانبين. وفي كثير من المواقف اختار بعض العرب عدم الاقتصار على مجرد تقديم الدعم المعنوي لليهود. فلقد أنقذ العرب في العديد من المرات وبشجاعة بالغة حياة الكثير من اليهود معرضين حياتهم للخطر في بعض الأحيان. إذن فهؤلاء العرب كانوا أبطالاً بحق.

لقد كانت الحرب بالنسبة لكل من العرب واليهود مصدر المتاعب والصعاب. فمع الحرب، ندر القمح والسكر والزيت والقماش وغيرها من السلع، وتفشى المرض، وأصبح بالفعل من المستحيل العثور على الأدوية. ولأول مرة في التاريخ، ظهر الخبز الأسود على أرفف المخابز المحلية. وفي عام 1941، تحسن الوضع بعض الشيء عندما توصلت الولايات المتحدة إلى اتفاق مع حكومة بيتين حول خطة أثارت الكثير من الجدل تقضي بأن يتم إمداد الدول التي تسيطر عليها فرنسا في شمال إفريقيا ببعض السلع الأساسية بشرط ألا ينتهي الأمر بهذه السلع في يد الألمان.[1] وقد كانت الولايات المتحدة تقصد من وراء ذلك الحيلولة دون مزيد من السقوط الفيشي في نطاق النفوذ النازي. ولكن على الرغم من ذلك ظل الوضع صعبًا. وكان لليهود النصيب الأكبر من المعاناة - فقد كانت حصصهم من الطعام أقل من حصص الأوروبيين والعرب المحليين – ولكن الجميع كانوا يصارعون من أجل البقاء. وفي ظل هذه الأوقات التي سادها الفقر والحرمان الشديد، كان المثل العربي القديم "أنا ضد أخي، وأنا مع أخي ضد ابن عمنا" هو المبدأ المتبع. فبذلت الأسر قصارى جهدها لتأمين ضروريات الحياة، واتحدت العشائر معًا ضد الدخلاء.

في مثل هذه الأوقات العصيبة يكون للأفعال البسيطة التي تحمل معاني الرحمة والتعاطف الإنساني معنى وتأثير أكبر بكثير عما لو كانت في الأوقات والظروف العادية. وبعد قرون، كان اليهود الذين تأثرت حياتهم بهذا الكرم الذي أظهره العرب تجاههم يتذكرون هذه الأفعال بشغف وحب من نوع خاص. ولم يكن يعني لليهود الذين يواجهون المصاعب والحرمان كثيرًا ما إذا كان هذا العربي مجرد شخص يعرفونه أو شخصًا غريبًا عنهم تمامًا، بل كان كل ما يهمهم أن يكون هذا العربي الملاك الحارس في أوقات الأزمات. وربما قيل بأن العرب الذين أظهروا هذه الأفعال التي تنم عن النبل وإنكار الذات لم يقدموا ما يمكن تسميتهم معه "أبطال" حرب، ولكن تلك الأفعال كانت تحمل كل معاني التعاطف والرحمة في وقت ندرت فيه تلك الأفعال، مثلها في ذلك مثل أي سلعة أخرى في ذلك الوقت.

وها هي قصة ميريلا حسن، وهي يهودية تونسية قامت بإرسال ردها على إعلان قمت بنشره على الإنترنت لتلقي بعض القصص عن العرب الذين ساعدوا اليهود أثناء الحرب، تقول ميريلا:

> عندما كنت فتاة صغيرة، كان والداي يخبرانني دائمًا عن صعوبات العيش في تلك الفترة، ولكنهما في نفس الوقت كانا يرويان لي كيف كان الجيران من المسلمين يساعدونهما بالطعام واللبن، فقد كان لدي في ذلك الوقت أختان في سن مبكرة للغاية، ولكنهما (في النهاية) ماتتا أثناء الحرب بسبب سوء التغذية. وقد كان أبي يذهب للبحث عن لبن الماعز في بيت الرعاة المحليين، وكان يذهب ليلاً أثناء القصف بالقنابل. وكانت أمي أيضًا ترضع أختي. وأتذكر عندما جاءت إحدى المرضعات المسلمات لمساعدة أمي في إرضاع أختي. هذا كل ما أتذكره، فأنا لا أذكر الاسم، ولكن كل ما أذكره هو تلك المساعدة التي قدمها لنا هؤلاء التونسيون المسلمون قدر استطاعتهم وبطريقتهم الخاصة، إنها بلا شك لفتة لا تصدر إلا عن شخص يحمل داخله معنى الصداقة وإنكار الذات، وهذا المعنى هو الذي ساهم في إنقاذ حياة الكثيرين...هذه هي شهادتي المتواضعة.[2]

وها هو أيضًا ديفيد جويز الذي قضى أيام الحرب في مدينة صفاقس التونسية ويتذكر ما أسماه سلوك العرب "العادل والمثالي" نحو اليهود. يقول ديفيد: "لقد كان سلوك العرب نحونا رائعًا بالفعل. إنني لن أنسى ذلك العربي الذي كان يساعدني ويعطيني رغيفًا إضافيًا من الخبر كل يوم. فعلى الرغم من صعوبة الحصول على الخبر في ذلك الوقت – وكان لا بد من الوقوف في الطابور – كان [الخباز العربي] يعطيني رغيفًا إضافيًا من الخبز. لقد كان هذا بحق تصرفًا نبيلاً منه."[3]

ويروى إبراهام كوهين قصة الرحلة التي قامت بها الأسرة هربًا من قصف قوات الحلفاء لمدينة طرابلس، حيث قام بعض المواطنين من العرب بإيواء أفراد الأسرة وتأجير شقة لهم، ولكن كوهين يتذكر تلك الحادثة على أنها أكثر بكثير من مجرد معاملة مالية. ثم قال كوهين: "[لقد رحب بنا العرب] بطريقة غير عادية، فالحق يجب أن يقال. فلقد استقبلونا ووفروا لنا المياه والطعام وأعطونا كل ما كنا في حاجة إليه.[لقد كانوا] ببساطة شركاء لنا في كل هذا، فلم يكن هناك فرق بين ما لنا وما لهم."[4] وهناك أيضًا قصة مشابهة يرويها عذرا يوسف الذي هو من طرابلس كذلك. "كانت المدينة تتعرض للقصف كل مساء...فلم يكن أمامنا سوى الفرار إلى الحقول، فما كان من العرب إلا أنهم أعطونا منازلهم – مقابل مبلغ من المال بالطبع. فكنا ندفع لهم المال وينامون هم بالخارج أو يصنعون لأنفسهم بعض الخيام، لكن ظلت العلاقات دائمًا طيبة."[5]

أما إيميلي توبيانا الذي كتب مذكرة لم يتم نشرها بعنوان scene of heavy wartime fighting (مشهد القتال الضاري وأيام الحرب) عن طفولته في مدينة باجة التونسية، فقد وصف الرحلة التي قامت بها أسرته إلى الريف قائلاً:

> كنا في وقت الظهيرة تقريبًا عندما وصلنا مزرعة نيزير التي كانت قد أصبحت أشبه بمجتمع صغير مترابط اجتمعت فيه ثلاثون أسرة. وعندما وصلنا تم استقبالنا بالأعناق والقبلات. أما صاحب المزرعة فقد خصص لنا أحد الإسطبلات لنقيم فيه، كما أمدنا بحمل عربة من القش كنوع من الفراش. هذا بالإضافة إلى الحساء المغذي الذي تناولناه ليشعرنا بالدفء بعد رحلتنا الشاقة، نعم لقد حاول الجميع أن يجعلونا نشعر كأننا في بيتنا. فعلى الرغم من الظروف الصعبة، إلا أننا على الأقل شعرنا بالأمن والسعادة.[6]

أما فيكتور كوهين من تونس فلقد فرق بين العداء الذي أظهره العرب تجاه اليهود في المدينة العاصمة والترحاب الذي أبداه العرب لليهود في المناطق النائية عن المدن. يقول فيكتور "في الجنوب، كان العرب يساعدون اليهود. فلقد أخذوهم إلى منازلهم في الجبال. ففي عائلتي مثلاً، كان لدي بعض الأعمام اتخذوا من بيوت العرب ملجأ لهم، ولقد كان هؤلاء العرب يقدمون لهم الطعام وكل ما هو مباح لليهود منه، مما جعلهم يشعرون بالسعادة والأمان – لكن العرب في المدينة كانوا يسببون لليهود الكثير من المشاكل."[7]

وهناك بعض العرب الذين لم يقتصروا على ذلك، بل أخذوا على عاتقهم مسئولية حماية ممتلكات اليهود من اللصوص والناهبين من الأوروبيين أو من العرب أنفسهم. ويروي ياكوف زريفي الذي كان يعيش في بلدة صغيرة قرب صفاقس كيف تمكن الألمان ومن كان يتعاون معهم من العرب من زرع الخوف في قلوب اليهود. ويستطرد ياكوف قائلاً: "ولكن الحقيقة أنه لم يكن الجميع على هذه الشاكلة. فلقد كان هناك من كانوا يخفون أموال اليهود. وكانوا يقولون: "سوف نحرسكم، وبهذه الطريقة لن يمسكم سوء، ولن يجرؤ أي عربي على فعل أي شيء بكم." وكما قال "كان العرب يحرسون اليهود."[8]

ثم كان بعد ذلك العرب الذين قاموا بحماية حياة اليهود وليس فقط ممتلكاتهم. ويروي لنا تزيفي حداد الذي قتلت والدته بسكين طعنها به في رقبتها أحد العرب خلال مذبحة قابس، وهي القصة التي رويتها في الفصل الرابع، يروي لنا موقفًا لعربي آخر تمثل فيه معنى الرحمة والتعاطف وحدث بعد الأول بثوانٍ قليلة. يقول تزفاي:

أتعرف من أنقذها؟ عربي آخر...إنني أتذكر اسمه وشكله، لقد جاء يقود دراجته مارًا من هناك. وعندما رآني قال: "هل أنت ابن الحاخام ييهوشوا؟" فقلت له "نعم." وعندها بدأ يصرخ في العربي الذي هاجم والدتي، وضرب على يديه ضربة شديدة، فلاذ الرجل بالفرار.[9]

وأثناء زيارة لتونس قمت بها في شهر مايو من عام 2004، كان من يرافقني أثناء زيارتي للمعالم اليهودية بالمدينة أستاذ جامعي كانت له شخصية جذابة وكان اسمه أندريه أبيتبول. وبينما كنا نطوف شوارع المدينة في أحد الأيام، روى لي أندريه قصة كانت من الشغف بحيث استحوذت على كل اهتمامي. لقد كانت قصة أحد أقارب زوجته الأثرياء وهو رجل يدعى ألبرت بيسيس، حيث أخبرني أن هذا الرجل قد قضى معظم فترة الاحتلال الألماني مختبئاً في قبو أحد المنازل الكبيرة في المدينة، وكان هذا المنزل يقع في أكثر العناوين شهرة في المدينة وهو 19 Avenue de Paris (19 شارع باريس). فلقد قام الضباط الألمان باحتلال المكان، والذي كان يعد واحدًا من أفضل المنازل في المدينة، وكانوا يعيشون في الطابق العلوي فقط. ويروي أبيتبول أنه كان هناك سائق عربي لم يعرف من اسمه سوى قدُّور. كان هذا الرجل يحمل الرسائل والطرود والبريد كل يوم إلى الألمان الذين كانوا يعيشون في الطابق العلوي، وكان ينتهز الفرصة لإعطاء بعض الطعام لألبرت الذي كان يعيش بالأسفل. فبفضل قدور استطاع ألبرت البقاء على قيد الحياة طوال فترة استمرار الاحتلال الألماني.[10]

ولعل أكثر ما يحرك المشاعر ويهز الوجدان من القصص التي تروى عن سلوك العرب تجاه اليهود هي تلك القصص التي تتميز بالبساطة التي رواها فيكتور كاناف وهو إسرائيلي ولد في ليبيا، والذي عرف في مسقط رأسه بنغازي باسم فيتوريك جانخ. ويصف فيكتور العلاقة بين الطائفتين بأنها كانت "أشبه بشهر عسل".[11]

وهناك العديد من الشهادات التي روى أصحابها قصصًا عن حراس المعسكرات العرب الذين رفضوا القيام بأعمال التعذيب السادي الذي أوقعه أقرانهم الأوروبيون (وبعض العرب من أتباعهم) باليهود وغيرهم من السجناء، بل إن بعضهم تمكن سرًا من إيجاد وسيلة لتخفيف معاناة اليهود. فعلى سبيل المثال، كان هناك يهودي ليبي يدعى يهودا شاكمون يعيش في أحد معسكرات الاعتقال الإيطالية في جيادو جنوب طرابلس. في هذا المكان الموحش، كان المعتقلون يلقون معاملة وحشية، ولكن كان ما يخافه هؤلاء المعتقلون أكثر هو المرض.
فمن بين اليهود الذين تم جمعهم في جيادو والذين بلغ عددهم 2600 تقريبًا مات منهم 562 في أقل من عام، وكان السبب في معظم الحالات هو التيفود، مما جعل حصيلة الوفيات في جيادو أعلى حصيلة وفيات في معسكرات العمل في شمال إفريقيا.[12] ولكن بينما كانت معاملة الحراس الإيطاليين لليهود "وحشية"، كانت معاملة العرب تحت القيادة الإيطالية – حسبما يقول شاكمون – "رائعة".

> لقد كانت العلاقات بيننا وبينهم طيبة. فعندما كانوا يرون أحد اليهود، كانوا لا يتحدثون إليه ولا يحاولون تعذيبه أو مضايقته. ولم تظهر المشاكل إلا عندما جاء الرائد الإيطالي إلى المعسكر... لقد كان سلوك الشرطة الإيطالية مختلفًا تمامًا عن سلوك الشرطة العربية.[13]

بل إن الإشارة إلى المواقف الإنسانية التي أبداها الحراس العرب نحو اليهود جاءت حتى فيما رواه خمسة من اليهود البولنديين عن المعاملة الوحشية التي وجدوها في معسكرات العمل الفيشية بالمغرب. وفي وصف للمكان في معسكر الانضباط بعين الكوراك، وهو مكان سيئ للغاية خارج مدينة أبو عرفة وهي مدينة عبور انتقالية تقع في جنوب المغرب وتشتهر بالتعدين، لاحظ المعتقلون السابقون أن هناك دورية تمر في المعسكر وتتكون من ثلاثين من الحرس العرب يقودهم رقيب فرنسي. وحسب قولهم، كان الحرس "يتم تغييرهم كل شهر مخافة أن يكونوا قد تعاطفوا مع السجناء." ومن الواضح أن ذلك لم يكن مجرد حدث استثنائي، فلقد أضاف هؤلاء السجناء السابقون أنه "لم يكن هناك خوف من تعاطف الآخرين مع السجناء"، وكان الآخرون الموجودون هناك هم الفيالقة والضباط الفرنسيين المرابطين في المعسكر.

وفي تقرير يروي العديد من حلقات مسلسل التعذيب السادي الذي ذاقه ألوانًا هؤلاء السجناء المساكين، سواءً من اليهود أم من غيرهم، تظهر لنا بوضوح مشاهد من إنسانية الحراس العرب في عين الكوراك وسط تلك التفاصيل الرهيبة المروعة للقصة.

فذات يوم، كانت درجة الحرارة قد بلغت 80 درجة مئوية، ولم يحصل السجناء على المياه طوال اليوم، فرفضوا الاستمرار في العمل وذهبوا إلى الملازم المسئول عن المعسكر - الملازم جرونتر (كان يعمل في السابق مساعد عميد، وهو فرنسي حاصل على الجنسية الألمانية) لطلب المياه. فما كان منه إلا أنه رفض طلبهم وأمرهم بالعودة إلى العمل. وعندما لم يتفرق السجناء أمر الحراس بإطلاق النار عليهم. وكان ما فعله الحراس العرب هو أنهم تعمدوا التصويب بعيدًا عن السجناء، في حين جرح الحراس الفرنسيون اثنين منهم.[14]

هذا الموقف الذي تعمد فيه الحراس العرب "التصويب بعيدًا" عن السجناء وهذا العصيان المتعمد للأوامر من قبل الحراس العرب كان هو بالتأكيد ما أنقذ حياة بعض اليهود. ولقد أدرك السجناء ما فعله هؤلاء العرب، وعبروا عن امتنانهم لهم، كما نقلوا ذلك إلى البريطانيين كي ينقلوه بدورهم إلى الأجيال التالية.

ولا ينبغي أن ننسى أولئك العرب الذين تعرضوا مع اليهود للاضطهاد وللقتل أحيانًا. ففي المغرب والجزائر، تم إرسال بعض العرب إلى معسكرات الاعتقال في الصحراء في نفس الوقت الذي تم فيه إرسال اليهود وغيرهم من المعارضين الآخرين للفيشية. وفي تونس، وبينما كانت قوات الحلفاء قاب قوسين أو أدنى من اختراق خطوط قوات دول المحور، قام الألمان بتجنيد العرب في العمالة القسرية بعد نفاد القوة العاملة من المجتمع اليهودي.

وفي مذكراته التي روى فيها الأحداث بواقعية شديدة، يخبرنا أحد المعتقلين اليهود - وهو يعقوب أندريه جويز – يخبرنا بقصة معقدة اجتمع فيها الصنفان، الصنف العنيف العدواني من حراس المعسكرات والمتربحين العرب، والصنف الثاني المتمثل في زملاء اليهود من العمال العرب الذين بلغ الأمر ببعضهم إلى أنهم ساعدوه هو وأحد رفاقه، في مرتين منفصلتين، في الهرب من بنزرت والعودة إلى تونس. لا شك أن العرب منهم الطيب والشرير، ولكن كما تكشف لنا قصة جويز، نرى أن الجانب الإنساني المتعاطف فيهم يغلب بشكل كبير على الجانب الآخر. وتنتهي القصة بجويز وهو يشق طريق العودة إلى وطنه بعد أن قام أحد سائقي العربات العرب بإخفائه بين أكوام من القهوة كان يبيعها في السوق السوداء.[15]

وفي بعض الأحيان، كانت المواقف غير العادية التي عبرت عن الصداقة بين المعتقلين العرب واليهود في معسكرات العمل الفيشية هي السبب في رفع الروح المعنوية لدى السجناء اليهود. وفي شيراجاز ميريدجا في الصحراء الجزائرية، قامت الحكومة بنفي الآلاف من اليهود الذين كانوا قد تم قيدهم في الجيش الفرنسي لمحاربة الألمان. وقد تمت تسمية هؤلاء اليهود *pionniers Israelites (الرواد الإسرائيليون) وهي حالة خاصة جعلت منهم سجناء من حيث كل شيء ما عدا الاسم.* كما كان في المعتقل كذلك بعض السجناء العرب، والذين تم اعتقالهم لمعارضتهم للحكم الاستعماري الفرنسي. وهناك حاول القائد الكابتن سوخت مرارًا إثارة التوتر بين العرب واليهود. ولكن باءت جميع تلك المحاولات بالفشل عندما ثبت أن الرباط الذي نشأ بينهم بعد أن وجدوا أنفسهم أمام نفس العدو الفاشي كان أقوى من العداوة المتبادلة التي كان يعول عليها سوخت.[16]

ولم يكن من الغريب أن يواجه العرب واليهود معًا الألم والعذاب في معسكرات العمل الفيشية. ففي الصحراء الجزائرية أيضًا وفي معسكر جينين بوريزيج، كان الملازم بيير دي ريكو، ذلك الروسي الأبيض السادي والذي كان يعمل قائدًا، كان يعطي السجناء المعارضين للفاشية من العرب واليهود والفرنسيين نفس القدر من الأعمال الشاقة، وكان يعطيهم نفس الطعام الذي لا يصلح للأكل، وكان يفرض عليهم نفس إجراءات الانضباط الصارمة.[17] وكان الأمر بالمثل في معسكر دجيلفا – مشهد محنة هاري ألكسندر التي استمرت عامين والتي تم التعرض لها في الفصل الرابع – كان عدد من العرب يمرون بنفس المعاناة جنبًا إلى جنب مع اليهود والجمهوريين الأسبان وغيرهم من السجناء. وهذا رجل أعمال تشيكي كان قد قضى ثمانية أشهر في المعسكر وروى بعد ذلك رواية مؤلمة عن المعاملة الوحشية التي لاقاها في المعتقل، وهو يتذكر على وجه الخصوص أسماء العديد من السجناء الذين قتلوا على مرأى ومسمع من قائد المعسكر ذي الأخلاق الفاسدة جيه كابوتشي، وقد كان أحد هؤلاء السجناء رجلاً جزائريًا اسمه قدور بيلقاين.[18]

وإذا كانت قصة الاضطهاد النازي والفيشي والفاشي لليهود في الأراضي العربية غير مشهورة، فقصة الاضطهاد النازي والفيشي والفاشي للعرب في الأراضي العربية هي أقل شهرة. فهي في كتاب التاريخ الضخم لا تعدو كونها

حاشية سفلية. ولكن هذه القصص والصور التي تجلبها إلى الأذهان لا شك أنها من الأهمية بمكان. فهي لا تلقي الضوء على الواقع غير المعروف لتاريخ المحرقة الطويل في العالم العربي فحسب، ولكنها تذكرنا بلحظة تشارك فيها بعض العرب واليهود على الأقل في المعاناة التي فرضت عليهم في ظل اضطهاد كلا الفريقين.

وقد كانت الجزائر العاصمة مسرحًا لأهم حلقات مسلسل تضامن العرب مع اليهود أثناء الحرب.

وكان للجزائر صفة فريدة تتميز بها عن كافة الدول الأخرى التي تسيطر عليها فرنسا، فلم تكن الجزائر مستعمرة أو محمية، ولكنها كانت جزءًا مستقلاً عن فرنسا. وحسب القانون الفرنسي، كانت الجزائر العاصمة مدينة فرنسية مثلها في ذلك مثل نيس أو مرسيليا أو بوردو. ولكن كون الأرض فرنسية لم يجعل ساكنيها فرنسيين. ففي العقود الأولى من الحكم الفرنسي، كان السكان الأصليون في الجزائر – المسلمون واليهود، فلم يكن هناك مسيحيون بين السكان الأصليين – لا يعدون من بين المواطنين الفرنسيين. وعلى الرغم من أنهم كانت تفرض عليهم بعض الالتزامات التي تفرض على المواطنين الفرنسيين (مثل الضرائب)، إلا أنهم لم تكن لهم أية حقوق من حقوق هؤلاء المواطنين. وكان ما فعلوه هو أنهم احتفظوا بوضعهم كسكان أصليين وخضعوا لقوانينهم العرفية والدينية.

ولكن بالنسبة لليهود، تغير هذا الوضع في عام 1870، عندما صدر قرار كرمييه الذي كان ينص على منح حق المواطنة الفرنسية لجميع اليهود المولودين في الجزائر، والذين يكونون على استعداد في مقابل ذلك بالالتزام بقانون الأحوال الشخصية الفرنسي. ولا نحتاج أن نقول أنه بالنسبة لليهود الذين كانوا ينظرون إلى فرنسا على أنها السبيل للحفاظ على حياتهم التي تهددها العاصفة الصاعدة للثقافة العربية، ثم بعد ذلك الوعي السياسي، كان قرار كرمييه بمثابة هبة من الله. فقبلت آلاف الأسر هذه الصفقة ليصبح أفرادها مواطنين فرنسيين.

ولكن قرار كرمييه كان له أعداؤه أيضًا. فلقد كان هو الصاعقة التي نزلت على اليمين السياسي المعادي للسامية في فرنسا، والذي طالب بإلغائه خاصة بعد قضية دريفيو. وقد كان من بين الدوائر التي مارست ضغطًا شديدًا ضد القرار المقيمون في المستعمرات الفرنسية في الجزائر والذين عرفوا بالمستعمرات "*colons*". فقد كان العديد منهم من المعادين المتشددين للسامية، والذين احتجوا بأن قرار كرمييه لن يفتح أبواب فرنسا أمام اليهود الذين عرفوا بصفاتهم المذمومة فحسب، ولكنه سوف يكون سابقة خطيرة قد تتكرر مع المسلمين. ولم تكن مفاجأة عندما قامت حكومة بيتين، في أحد أول القرارات التي اتخذتها، بتنفيذ ما طالبت به بالمستعمرات "*colons*" تمامًا وإلغاء القرار.

ولكن المسئولين في حكومة بيتين فعلوا ما هو أكثر من ذلك: فلقد قاموا بسحب حق المواطنة بأثر رجعي من جميع اليهود (وأبنائهم) الذين اكتسبوا هذا الحق طوال فترة نفاذ القرار. فمن بين اليهود الجزائريين الذين كانوا يتمتعون بحق المواطنة الفرنسية في ليلة استسلام فرنسا عام 1940 والذين كان يبلغ عددهم 106.986 يهودي، قامت الفيشية على الفور بسحب المواطنة من نسبة 98.5 منهم. وبذلك تكون فرنسا في عهد الفيشية قد لحقت بألمانيا في عهد هتلر لتصبحا بذلك الدولتين الوحيدتين أثناء الحرب اللتين قامتا بنزع المواطنة بشكل قانوني ومنهجي من السكان اليهود.[19]

ولم تكن تلبية مطالب المستعمرين الفرنسيين هي السبب الوحيد الذي دفع المسئولين في العهد الفيشي إلى إلغاء قرار كرمييه. فهم قد رأوا أن هذا القرار سوف يقوي مكانتهم الضعيفة بين السكان العرب في الجزائر.[20] فكما أشرنا سابقًا، لقد تسببت الهزيمة السريعة والمحرجة لفرنسا على يد ألمانيا في جرح كبريائها، الأمر الذي يعد عاملاً أساسيًا يقضي بضرورة إبقاء أي طائفة هادئة من السكان في سباتها وعدم إثارة حفيظتها. ولكن الألمان أنفسهم قاموا بمزيد من الإجراءات لسحب البساط من تحت أقدام الفرنسيين، فلقد قاموا بإطلاق سراح المئات من المعتقلين السياسيين العرب والذين كانوا قد اعتقلهم الفرنسيون، وقاموا بتوفير خدمات خاصة (مثل بناء المساجد وإصدار صحف باللغة العربية وما إلى ذلك) للجنود العرب الذين كانوا محتجزين من قبل الجيش الفرنسي كأسرى حرب في أوروبا والذين كان يبلغ عددهم 90.000 جندي، كما قام الألمان بإنشاء محطات راديو عربية تبث إرسالها باللهجات المحلية.[21] وكانت نتيجة ذلك أن وجدت الفيشية نفسها ليست طرفًا فاعلاً في حرب من أجل عقول وقلوب العرب، بل منغمسة في صراع للحيلولة دون تقلص سلطتها وظهور النفوذ الألماني ليحل محل نفوذها. وبدأ المسئولون في عهد الفيشية

يبحثون عن السبل للفوز بالدعم العربي، ولكنهم لم يشاءوا أن يرفعوا مكانة العرب للحصول على ذلك الدعم. فهداهم تفكيرهم إلى أنهم من الممكن أن يحققوا نفس الأهداف بالحط من مكانة اليهود.

ولكنهم كانوا على خطأ. فلقد أدرك العرب من الجزائر بوجه عام هذه الحيلة الفرنسية ورفضوا لعب أي دور فيها، وإن كان بعضهم قد حصل على بعض المكاسب السياسية قصيرة المدى. وقد علق القائد الوطني فرحات عباس ذات مرة على الحكومة الفيشية قائلاً: "إن عنصريتكم تجري في جميع الاتجاهات، اليوم ضد اليهود ودائمًا ضد العرب."[22] كما ورد على لسان ميسالي الحاج الزعيم المسجون حينذاك لحزب الشعب الجزائري لدى إلغاء قرار سيرمييه قوله: "إن هذا لا يعد تقدمًا للشعب الجزائري – وإن تقليل حقوق اليهود لا يزيد من حقوق المسلمين."[23]

مما يثير الدهشة أن المؤسسة الدينية الإسلامية كانت أحد المصادر الرئيسية لتحقيق التعاطف مع اليهود بين السكان العرب في الجزائر العاصمة. وكان النجم اللامع هنا هو عبد الحميد بن باديس زعيم حزب الإصلاح الجزائري. وكان بن باديس رجلاً شديد التقى والورع، ولكنه كان ينظر إلى العالم بنظرة تتسم بالحداثة والتفتح والتسامح، وكان من بين إنجازاته العديدة تأسيس الرابطة الجزائرية للمسلمين واليهود. ولكن مع الأسف لم تمهله المنية، حيث مات في ربيع عام 1940 قبل أن تنعكس شخصيته التي تميزت بالقوة والإبهار على ردود فعل المسلمين تجاه تولي الحكومة الفيشية للسلطة.

أما في عهد الفيشية، فكان من ارتدى هذه العباءة هو الشيخ طيب العقبي. فمثل بن باديس، كان العقبي أحد زعماء الإصلاح، وكان ممن أقاموا علاقات وثيقة مع زعماء اليهود في الجزائر العاصمة، مما حدا بهؤلاء اليهود إلى رد الجميل عن طريق توجيه التبرعات اليهودية إلى المؤسسات الخيرية المفضلة لدى العقبي. وقد ظهرت حماسة وشجاعة العقبي في بداية عام 1942 عندما سمع بعض الإشاعات التي كان مفادها أن قادة مجموعة فرنسية مناصرة للفاشية عرفت آنذاك بـ Légion Français des Combattants يحاولون تحريض القوات المسلمة على شن مذبحة ضد يهود الجزائر العاصمة، فما كان من العقبي إلا أنه بذل قصارى جهده لتقويض هذه الخطة، بل إنه أصدر فتوى رسمية بتحريم مهاجمة اليهود على المسلمين. وقد شبه أحد المؤرخين العقبي بكل من ساليبجيه وجيرلييه وهما فرنسيان اشتهرا بتأييد وحب شديد للسامية وكان كل منهما يعمل كبير أساقفة، وقد أرجع ياد فاشيم إليهما الفضل في إنقاذ اليهود. غير أن هذا المؤرخ قد ذكر فرقًا واحدًا – وهو أن مستوى "المخاطرة الشخصية الكبيرة" التي تحملها العقبي في قيادة الحملات بالنيابة عن اليهود قد جاوزت نسبة المخاطرة في الحملات التي قادها هذان الأسقفان الكاثوليكيان الفرنسيان.[24]

ومن فوق منابر المساجد في الجزائر العاصمة، كان الأئمة يوجهون المسلمين ويحذرونهم من محاولة الاستفادة من المعاناة التي يمر بها اليهود لتحقيق مكسب مادي. هذا العمل الذي تتجسد فيه قيمة إنكار الذات في وقت كان فيه العديد من المستعمرين الفرنسيين يكدسون الثروات على حساب اليهود، يعد بلا شك عملاً نبيلاً للغاية من جانب أفراد الطائفة المسلمة.

وقد كان القانون الفيشي يقضي بأن يقوم أصحاب الممتلكات من اليهود بتسليم أصولهم الثابتة إلى الأوصياء الذين كانوا يديرون شئون العمل بنظام الوصاية. وفي الواقع، لقد منح هذا القانون الأوصياء فرصة ذهبية لتكوين أرباح طائلة، فلم يكن الوصي يتلقى أجرًا على خدماته فحسب، ولكنه كان يتمتع أيضًا بحرية إدارة العمل بالشكل الذي يخدم مصالحه الشخصية. وبالرغم من أن عددًا قليلاً من الأوصياء قد قبل هذه الوظيفة كطريقة لحماية سلع أصدقائهم من اليهود، إلا أن هؤلاء الناس كانوا - كما قال أحد المؤرخين- من صنف "نادر للغاية".[25] وعلى الجانب الآخر وفي أحيان كثيرة، كان القائمون على هذا الأمر في الحكومة الفيشية يستخدمون تعيين الأوصياء على أنه منصب سياسي يسيل له لعاب الجميع، فكانوا من ناحية يكافئون به المخلصين من مؤيديهم، ومن ناحية أخرى يشجعون به من يترددون في الانضمام إليهم. وكجزء من جهودهم الرامية إلى حشد الدعم للحكومة الفيشية، كان المسئولون المحليون يحاولون بشكل متكرر قيد العرب معهم للعمل كأوصياء. ولكن الجميع كانوا يعرفون أن هذا التعيين ما هو إلا رشوة غير مفضوحة بشكل كبير.

ومما يشهد للعرب الذين كانوا يعيشون في الجزائر العاصمة أن أحدًا منهم لم يفكر في قبول عرض الحكومة الفيشية. وفي أحد أيام الجمعة من عام 1941، خطب الزعماء الدينيون في جميع أنحاء المدينة محذرين جميع المسلمين

الصالحين من قبول العروض الفرنسية للعمل كأوصياء على الممتلكات اليهودية. بل إنهم حرموا على المسلمين شراء السلع اليهودية التي كانت تباع في المزادات بأسعار أقل من أسعار السوق. وبالرغم من الصعوبات الاقتصادية التي كان يواجهها العرب أثناء الحرب، إلا أنهم رفضوا الاستفادة من معاناة اليهود لتحقيق أي مكسب شخصي. وتلبية لدعوة أئمتهم، لم ينتهز أي من العرب الفرصة لتحقيق مكسب مادي سريع سواءً من خلال العمل كوصي مؤتمن أو من خلال شراء الممتلكات اليهودية بالأسعار التي عينتها الحكومة الفيشية والتي كانت لا تزيد على الأسعار التي يتم تعيينها للسلع التي لحقت بها ألسنة اللهب.

وفي لقاء تم بعد الحرب مع جوزيه أبولكر البطل الشجاع لحركة المقاومة في الجزائر العاصمة والتي كانت تضم العديد من اليهود، قام جوزيه بالثناء على العرب من سكان المدينة قائلاً:

> إن العرب لا يشاركون [في القتال ضد الحكومة الفيشية]، فهي ليست حربهم. أما فيما يتعلق باليهود فهم رائعون. فقد حاول المسئولون في الحكومة الفيشية والعملاء الألمان دفعهم إلى المظاهرات وارتكاب المذابح. ولكن جميع محاولاتهم باءت بالفشل. وعندما تم عرض الممتلكات اليهودية للبيع بالمزاد العلني، انطلق الأئمة في المساجد يوجهون ويرشدون الناس قائلين: "إن إخواننا في محنة شديدة. فلا تأخذوا ممتلكاتهم." فلم يحاول أحد من العرب أن يحصل على وظيفة مدير للممتلكات. فهل تعرف نماذج أخرى على هذا الشعور الجماعي بالكرامة الذي لا نملك معه سوى التعبير عن إعجابنا؟[27]

والآن إذا نظرنا إلى مجمل هذه القصص التي تروي لنا كيف ساعد العرب اليهود، نجد أنها شهادة للحقيقة التي تقول أن الكرم الإنساني البسيط لم يتلاش ولم يزل حتى في ظل ظروف الحرب القاسية. فلو حدثت هذه المواقف التي وصفت لنا في وقت آخر وفي مكان آخر، لأصبح العديد منها غير جدير بالذكر. ولكن نظرًا للوقت والمكان الذي حدثت فيهما، أصبحت هذه المواقف وبحق مواقف رائعة ونادرة.

ومعظم العرب الذين رويت قصصهم حتى الآن – حراس المعسكرات وزملاء اليهود من السجناء والوعاظ في المساجد الذين تم ذكرهم آنفًا – لم أذكر أسماءهم. فلم نستطع أن نروي مآثرهم الطيبة إلا من خلال ذاكرة هؤلاء اليهود الذين وجدوا لديهم الرحمة والعطف، هؤلاء العرب لم ينالوا تكريمًا ولا تقديرًا عامًا لأنهم فتحوا قلوبهم لليهود الذين كانوا يواجهون الاضطهاد. ولكن ليس كلهم مجهول الاسم. فبفضل الشهادات والأراشيف والمذكرات والصدفة المحضة أحيانًا، كان لنا شرف معرفة أسماء بعض أولئك العرب الذين ساهموا في إنقاذ اليهود من الألم والإصابة، وأحيانًا من الموت.

ولعل أشهر هؤلاء العرب هو السلطان محمد الخامس سلطان المغرب، والابن الثالث للسلطان مولاي يوسف سليل الأسرة العلوية التي حكمت المغرب منذ عام 1649. وقد تم اختيار محمد المولود عام 1910 من قبل الفرنسيين ليخلف والده، وكان عمره حينذاك سبعة عشر عامًا فقط. ظن الفرنسيون أن الأمير الشاب سوف يكون عميلاً مطيعًا في أيديهم في مغامرتهم الاستعمارية، ولكن لم يستغرق الأمر طويلاً حتى أظهر محمد الخامس نزعته الاستقلالية. والحق أن السلطان محمد الخامس قد وضع شوكة في حلق الفرنسيين بدعمه للقضية الوطنية، وزاد في هذا الدعم حتى تم نفيه إلى كورسيكا ثم إلى مدغشقر في بداية الخمسينيات من القرن الماضي. ولكن التكتيكات الفرنسية التي كانت تعتمد على القوة والعنف لم تنجح إلا في تغذية الروح القومية. ففي نوفمبر من عام 1955، اضطر الفرنسيون إلى تغيير تكتيكاتهم وإعادة محمد الخامس إلى المغرب، حيث استقبله أهلها استقبال الأبطال. وفي فبراير من عام 1956، توصل محمد الخامس إلى اتفاقية مع باريس لحصول المغرب على الاستقلال التام. وفي السنة التالية، تم منحه لقب الملك وظل يحكم البلاد حتى وفاته في عام 1961.

وقد كانت الحرب العالمية الثانية بالنسبة لمحمد الخامس وقتًا عصيبًا للغاية. فكعاهل لمحمية فرنسية، تولى محمد الخامس الحكم ولكنه لم يحكم. فباستثناء المنطقة الإسبانية الصغيرة الواقعة في الشمال،[28] كانت القوات الفرنسية تسيطر على كافة أنحاء البلاد، وكان المندوب السامي الفرنسي يقدم التوصيات للسلطان، وهي التوصيات التي كانت في حقيقتها أوامر. ولكنه لم يكن مسلوب القوة تمامًا، فالتأثير الرمزي لحكومته كان يعني الكثير بالنسبة للفرنسيين، وكان السلطان يستخدمه كثيرًا لصالحه ولصالح بلاده. وتؤكد الأحداث أن محمدًا الخامس لم يكن لديه شعور

بالتعاطف نحو الألمان، وهو الشعور الذي كان سائدًا بين النخبة العربية في ذلك الوقت. وقد استاء السلطان بصفة خاصة عندما اعتمدت الحكومة الفيشية في قوانينها المعادية لليهود على العرق (كمية الدم اليهودي الذي يجري في العروق) وليس على الدين (اعتناق اليهودية أو المسيحية أو الإسلام). وقد كان ذلك يمثل انتهاكًا لعقيدة محورية من عقائد الدين الإسلامي، والذي يرحب بمن تحول إليه ويعتبره ابنًا من أبناء العقيدة الإسلامية لا يقل عن أي مسلم آخر، ويتساوى في الوضع القانوني مع المسلمين الآخرين. وقد كانت تلك القوانين المعادية لليهود تنص على أن الشخص يكون يهوديًا إن كان أبواه يهوديين، سواءً أعلن أنه يهودي أم لا. ولم تكن تلك الأوامر الفرنسية الجديدة تمثل إساءةً لما كان يشعر به محمد الخامس من حساسيات تجاه قلقه على رعاياه اليهود المخلصين، ولكنها كانت تمثل أيضًا إهانة لدور السلطان الذي يمتد نسبه إلى الرسول ويعد "أمير المؤمنين"، وهو الدور الذي امتد عبر الأجيال.

وفي 31 أكتوبر من عام 1940، وبعد أقل من شهر من توقيع بيتين على القانون المعادي لليهود الذي وضعته الحكومة الفيشية، قام السلطان بوضع ختمه الملكي للتصديق على تطبيق القانون في المغرب. ولكنه لم يفعل ذلك إلا بعد أن انتزع من الفرنسيين تنازلين هامين، وهما: أولاً أن يتم تعريف اليهود الموجودين في المغرب حسب الاختيار الديني وليس حسب العرق أو النسب، وثانيًا ألا يتم تطبيق المحاذير المفروضة على المهنيين اليهود والأنصبة المقررة على الطلاب اليهود على المؤسسات اليهودية الخالصة، مثل المدارس الدينية والجمعيات الخيرية العامة. ولا شك أن التنازل الثاني يحمل في طياته تأثيرًا عمليًا كبيرًا، فبفضل هذا التنازل استمرت الحياة العامة اليهودية في المغرب دون مضايقات من سلطات الحكومة الفيشية. ولم تتمكن المدارس اليهودية من التخلص من القيود الخانقة التي كانت تفرضها الحكومة الفيشية على المدارس في الجزائر فحسب، ولكنها استمرت كذلك في تلقي الكثير من ميزانيتها – ما يصل إلى 80% - من خزانة الحكومة.[29] أما التنازل الأول فقد كانت فوائده رمزية أكثر منها عملية. وقد لجأ عدد قليل للغاية من اليهود في المغرب إلى إعلان الإسلام لتجنب الجزاءات التي كانت توقعها الحكومة الفيشية على الممتلكات والمهن. لكن بعض اليهود المغاربة قد سعدوا بالفعل برفض السلطان السماح لهؤلاء الدخلاء من الحكومة الفيشية أن يهدموا أحد أسس المجتمع المغربي، وهو أن الرعايا يتم تصنيفهم على أساس العقيدة لا على أساس العرق.

وقد قدم محمد الخامس دعمًا معنويًا كبيرًا ليهود المغرب، وذلك بصورة سرية. فعندما أمرت السلطات الفرنسية بعمل إحصاء لكافة ممتلكات اليهود في البلاد، خشيت القيادات اليهودية أن يكون ذلك تمهيدًا لمصادرة عامة للممتلكات. وعندها قام السلطان بعمل ترتيبات سرية لتسلل مجموعة من الشخصيات اليهودية البارزة إلى القصر مختبئين في عربة مغطاة حتى يستطيع مقابلتهم بعيدًا عن أعين جواسيس الفرنسيين. وحسب رواية أحد الأشخاص الذين حضروا ذلك اللقاء، وعد السلطان هؤلاء المجموعة من اليهود بأنه سوف يحميهم، كما أكد لهم أن هذا الإحصاء ليس خطوة أولى في خطة تهدف إلى انتزاع ممتلكاتهم. (بعد الغزو البريطاني الأمريكي للمغرب، دبر السلطان تدمير الوثائق الخاصة بالإحصاء.)[30]

وعلى نفس درجة أهمية هذه التصريحات الخاصة، كانت التصريحات العامة التي أدلى بها السلطان بالنيابة عن رعاياه من اليهود، وهي التصريحات التي ساهمت في إعلاء نجمه أكثر وأكثر. ففي الحفل السنوي الذي كان يقام في عيد الجلوس، ومع احتشاد النخبة المغربية مع مسئولي الحكومة الفيشية في القصر الملكي، قصد الملك الترحيب بزعماء الطائفة اليهودية الموجودين وسط الحضور. وبصوت عالٍ يستطيع سماعه المسئولون في الحكومة الفيشية وواحد على الأقل من الصحفيين الفرنسيين ليقوم بنقل الرسالة، قال السلطان: "إنني يجب أن أخبركم أن اليهود سوف يظلون في حمايتي، تمامًا كما كان الأمر في الماضي. إنني أرفض أن أضع أي تمييز بين رعيتي."[31]

وبفضل هذه الأفعال التي برهنت على تضامنه مع رعاياه اليهود، يحتفي تاريخ اليهود في المغرب بالسلطان محمد الخامس ويصفه بأنه منقذ، وبأنه واحد من أفضل وأعدل الحكام الذين عرفهم اليهود طوال تاريخهم كما أنه أكثرهم تسامحًا. وقد أخذت سمعته بعدًا خياليًا لدرجة أن اليهود المغاربة كانوا يؤلفون بعض الحكايات عن بطولته.[32] والحقيقة أن تصريحات وأفعال السلطان التي كان يتضح فيها حرصه على مصالح اليهود، وعلى الرغم من نبل مقصدها، إلا أنها لم تؤثر بشكل فعال على تطبيق سياسة "معاداة الدولة للسامية" التي اتبعتها الحكومة الفيشية في محميتها المغربية، والتي استطاع الفرنسيون تنفيذها إما بشكل مباشر أو من خلال عملائهم في بلاط السلطان مثل

المقري أحد الوزراء الكبار والذي كان من المعادين للسامية. ولكن يبقى السلطان أحد الأبطال المحبوبين لدى اليهود المغاربة داخل وخارج المملكة.[33]

ولعل ممن نالوا شهرة أقل في حماية مصالح اليهود، ولكنهما يستحقان نفس درجة التقدير والتكريم حاكما تونس في وقت الحرب أحمد باشا باي وعلى وجه الخصوص ابن عمه منصف باي، وهما وريثا أسرة حاكمة أخرى في شمال إفريقيا وهي أسرة الحسينيين. (كلمة "باي" هي لقب تشريفي ينتمي إلى أصول تركية عثمانية وكان يطلق على أمراء شمال إفريقيا.) ومثل سلطان المغرب، كان أميرا تونس يعملان في ظل القيود الصارمة التي وضعتها فرنسا في محميتها، ولم يكن لديهما سوى مساحة صغيرة للمناورات المستقلة. وعندما طالب أحد مبعوثي الحكومة الفيشية بضرورة توقيع أحمد باشا على نسخة محلية من القانون المعادي لليهود، لم يكن أمام الأمير خيار آخر سوى أن يقبل. ومثل السلطان، كانت تصدر من الأميرين التونسيين تلميحات بأنهما سوف يقدمان الدعم العام لليهود الذين يواجهون الاضطهاد، ومن الأمثلة على ذلك تصريح منصف باي الذي أدلى به بعد اعتلاء العرش بوقت قصير والذي عبر فيه عن اهتمامه بـ "جميع السكان خلال مدة الوصاية على العرض."[34]

ولكن الأميرين التونسيين قد قاما في بعض المواقف بفعل ما هو أكثر من ذلك. فمثلاً كانت هناك ثغرة في النسخة التونسية من القوانين المعادية لليهود التي وضعتها الحكومة الفيشية، والتي من خلالها كان يحق للحاكم منح إعفاءات لليهود التونسيين الأصليين الذين قدموا خدمات غير عادية للدولة. فما كان من أحمد باي إلا أنه استغل ببعد نظره هذه الثغرة ليعفي اثنين من الشخصيات اليهودية الرائدة، وهما روجيه ناتاف وكان يعمل طبيب عيون، وباول جيز وهو الرجل الذي خدم بعد ذلك كرئيس مكتب العمالة اليهودي أثناء الاحتلال الألماني. أما منصف باي – خليفة أحمد باي – فقد ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك. فلقد أومأ إلى تضامنه مع رعاياه المضطهدين من اليهود، وكذلك استقلاله عن الحكومة الفيشية، عندما قام وبمنتهى الجرأة بمنح أعلى درجات التقدير الملكية لحوالي عشرين من الشخصيات اليهودية البارزة، وذلك بعد ثمانية أيام فقط من اعتلائه العرش.

وبعد خمسة أشهر، وصل الألمان. ومع وجود آلاف من القوات الألمانية تحتل بلاده، ومع إمكانية أن يتحدد مصير الصراع العالمي كله على أرضه، واجه منصف باي مجموعة من الظروف التي لم تواجه أي زعيم عربي آخر. فقد كانت مصالحه الشخصية تقع بين جانبين متعارضين. فكتونسي يعتز بكرامته، أراد منصف باي أن يرفع من درجة الروح الوطنية التي صاحبت الهزيمتين العسكريتين لفرنسا عامي 1940 و1942، ولكن على العكس من الكثيرين من الوطنيين التونسيين في ذلك الوقت، علم منصف باي أن الألمان لا يتقبلون فكرة الاستقلال العربي.[35] ونظرًا لأنه رجل عصري متفتح العقل، فقد قدر إسهامات اليهود التونسيين في التنمية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لبلاده، وأراد أن يفعل كل ما بوسعه لحمايتهم من جشع ووحشية الغزاة، ولكنه لم يشأ مع ذلك أن يفعل أي شيء يثير غضب الألمان عليه أو على بلاده.[35]

لذا لجأ منصف باي إلى طريقة اللعب على الحبلين. فمن ناحية، قام منصف باي في نوفمبر من عام 1942 برفض الطلب المباشر الذي توجه به إليه الرئيس روزفلت يناشده فيه باتخاذ جانب الحلفاء، بل إنه لم يظهر حتى مقاومة رمزية إزاء وصول القوات الألمانية.[37] ولكنه من ناحية أخرى، قام باتخاذ إجراءات فردية متعددة لحماية اليهود. أما رئيس وزرائه المختار محمد تشنيك فقد كان رجل أعمال تربطه علاقات قديمة بالطائفة اليهودية التونسية، ولذا فقد كان يحذر زعماء اليهود دائمًا من الخطط الألمانية، وكان يساعدهم على الهروب من أوامر الاعتقال، وكان أيضًا يتدخل لمنع ترحيل بعض أفرادهم، بل إنه كان يخفي بعضهم للهروب من أعمال التفتيش المنظمة التي كان يقوم بها الألمان. وبناءً على أوامر من منصف باي، قام بعض وزراء مجلسه بمنح إعفاءات خاصة لبعض الشباب اليهودي حتى يتمكنوا من الهرب من العمالة القسرية، كما حاول هؤلاء الوزراء التدخل لدى السلطات الألمانية لصالح الرهائن اليهود. بل وصل الأمر إلى قيام بعض أفراد البلاط الملكي بإخفاء اليهود الذين كانوا قد هربوا من معسكرات العمل الألمانية. وقد كان منصف باي يبذل قصارى جهده باستمرار لبث شعور بالقومية التونسية عبر جميع المناطق وفي أفراد جميع الأديان التي توجد في تونس. ولذا فلم يكتف بالسفر إلى بعض أكثر المناطق النائية في بلاده، بل إنه كان يقدم الأموال من الخزانة الملكية لبناء المساجد والمدارس، بل إنه قدم الأموال لبناء ضريح لأحد القديسين اليهود الذي كان موضع تبجيل واحترام لدى جميع اليهود. وقد قال أحد المؤرخين: "إن ما قام به منصف باي وحكومته هو الشيء الذي منع الشعب التونسي من الاغترار بالإنذارات الألمانية، والأهم أنه هو الشيء الذي حافظوا من خلاله على وحدتهم."[38]

وكما هو الحال بالنسبة للسلطان محمد الخامس في المغرب، فلا شك أن الطائفة اليهودية في تونس لا زالت تتذكر منصف باي وتولي ذكراه كل الحب والتقدير. فيقول عنه أحد اليهود وهو موردخاي كوهين: "إن منصف باي قد فعل الكثير لإنقاذ اليهود".[39] ويقول عنه يهودي آخر وهو شلومو باراد: "إنه في الحقيقة لم يفرق بين اليهود وغيرهم، فهو لم يسمح بتمييز الآخرين عليهم:" [40] ويقول ماتيلد جويز من مدينة سوسة: من المواقف التي تشهد لمنصف بيه أنه جمع ذات يوم جميع كبار المسئولين في الدولة في قصر باردو، وورد أنه أصدر التحذير التالي: "إن اليهود يمرون بوقت عصيب، ولكنهم يعيشون في حمايتنا ونحن مسئولون عن حياتهم. فلو علمت أن واشيًا عربيًا تسبب في أن تمس شعرة واحدة من يهودي، فسوف يدفع العربي حياته ثمنًا ذلك."[41]

وعلى الرغم من أن بعض هذه الذكريات قد تتحول مع الوقت إلى أساطير، وهو ما يعكس شعورًا بالتوق إلى زمن ولى وانصرف، إلا أن هذه الذكريات لا يبدو أنها تعبر بدقة عن المشاعر التي كانت لدى العديد من اليهود التونسيين تجاه الأسرة الحاكمة في البلاد. ولعل الموقف التالي يبين الصورة بشكل أوضح، فعندما توفي منصف باي عام 1948 سار في موكب جنازته عدد كبير من اليهود الذين جاءوا بالنيابة عن الطائفة اليهودية في تونس، وذلك بالرغم من قيام الفرنسيين الأحرار بعزله ونفيه بزعم التعاون مع الألمان. والحق أن شعور اليهود التونسيين بالامتنان تجاه الأسرة الحاكمة استمر لعقود بعد الحرب.

عندما قمت بزيارة تونس في مايو من عام 2004، قام البروفيسور أبيتبول باصطحابي لزيارة الحاخام العظيم ذي العمر المديد حاييم مادار، والذي تقع شقته المليئة بالكتب في الطابق الثاني من بناية يصعب وصفها في شارع فلسطين "Rue de Palestine". (أحد كبار الحاخامات يعيش في شارع فلسطين "Rue de Palestine" – تلك هي الطبيعة المعقدة لحياة اليهود في الأراضي العربية!) ومن الغريب، أن الجار المباشر للحاخام كان سيدي الشاذلي باي الذي يبلغ من العمر أربعة وتسعين عامًا، والذي هو ابن آخر حاكم لتونس من الأسرة الحاكمة. وقبل تعرف كل طرف على الطرف الآخر، رحب بنا الشاذلي باي ترحيبًا حارًا. ومع أنه كان طريح الفراش، وبالرغم من قصر قامته التي أخذ منها الزمن، إلا أنه كانت تملؤه الحيوية واليقظة والرغبة في الحديث. وأثناء الحديث، روى هذه القصة: عندما قام القوميون التونسيون بقيادة حبيب بورقيبة بإعلان الاستقلال في عام 1956، قاموا بعزل الباي ومصادرة ثروة وممتلكات الأسرة الحاكمة. فقام يهود تونس لتقديم العون والمساعدة. فلم يكتفوا بدفع ثمن شقته، بل قاموا أيضًا بدفع نفقات تعليم ابنه. ولا شك أنه في ظل الأجواء السياسية المعادية لكل ما هو ملكي والتي حدثت فيها تلك الواقعة، لا يمكن أن ننظر إلى هذا التصرف الكريم إلا على أنه شعور حقيقي بالامتنان من الرعايا اليهود للباي لدعمه لهم في أوقات الأزمات.

ولم يكن منصف باي هو الزعيم التونسي الوحيد الذي تتذكره الطائفة اليهودية في تونس بكل الحب والتقدير لما قدمه لليهود من مساعدة أثناء الحرب. ففي تلك اللحظات الحرجة من تاريخ البلاد، عندما كانت القوى العظمى في صراعها العالمي على الأراضي التونسية، جمع منصف حوله بلاطًا وحكومة تألفت من أكثر الرجال في تونس خبرة واستنارة، ومنهم رئيس الوزراء تشنيك ووزير البلاط عزيز جيلولي وكان أحد المفكرين الإسلاميين الليبراليين وشغل في السابق منصب عمدة تونس. ونظرًا لأنهم كانوا في صراع مع كل من السلطات الفرنسية والمحتلين الألمان وقوات التحالف المتمردة، كانت مهمة هؤلاء الرجال هي حماية استقلال تونس، أو ما تبقى منه، وحماية التونسيين. وكان دأبهم المستمر هو مساعدة اليهود بشكل فردي في أغلب الأحيان وبشكل جماعي في بعض الأحيان. وهم لم يتمكنوا من تحقيق النجاح على الدوام. فعندما توسلت كل من كلير وليلا سيملا لجيلولي طالبتين شفاعته لإنقاذ حياة زوجيهما، وهي القصة التي رويتها في الفصل الأول من هذا الكتاب، أقر لهما بأنه، وهو الشخصية العربية البارزة، عديم الحيلة لا يملك لهما شيئاً.[42] ولكنهما مع ذلك نجحا في بعض الأحيان في تأمين إطلاق سراح الرهائن اليهود، أو تحذير زعماء اليهود من الاعتقالات المتوقعة، أو تأخير تنفيذ القانون المعادي لليهود. من أجل ذلك، يتذكر اليهود في تونس كل من تشنيك وجيلولي وزملاءهم كأصدقاء وقفوا إلى جانبهم في وقت الحاجة.[43]

ولعل من أروع المواقف التي تشهد بالكرم العربي تجاه اليهود في أوقات الشدة قصة سي علي سكات. فبالرغم من أن هناك روايتين على الأقل لأحداث الاحتلال الألماني يرويهما يهود تونسيون بعد الحرب تشيران إشارة عابرة إلى مآثره، إلا أن ما كان يتصف به من عدم الأنانية ونكران الذات ذهب في طي النسيان. فهو بحق قصة منسية.

ينتمي سي علي المولود في السبعينيات من القرن التاسع عشر إلى عائلة مسلمة نبيلة وهي عائلة أهل قريش، والتي يرجع نسبها إلى الرسول محمد. ومنذ سن مبكرة، كرس سي علي نفسه للعمل في الخدمة العامة. ومن مسئول صغير في المدن الإقليمية البعيدة أصبح العمدة المعين لتونس. وبعد ذلك تم ترشيحه وزيرًا في البلاط الأميري، حيث عمل في منصب *ministre de la plume et la consultation (وزير التشريفات والتشاور)، وهو منصب، على الرغم من عدم شيوع لقبه، يمتلك بعض أهم السلطات في الحكومة بما في ذلك العديد من مسئوليات وزير العدل ووزير الشئون الداخلية ورئيس الأركان في العصر الحديث.*

وقد كان سي علي أحد أبناء العصر الليبرالي العربي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وهو العصر الذي تولدت فيه شعلة للتنوير والحداثة لم تستمر طويلاً ولكن تأثيرها كان عظيمًا، فتم إدخال العديد من الإصلاحات السياسية والاجتماعية والثقافية الهامة التي شهدتها أوروبا إلى المجتمعات العربية. ونظرًا لهذا المزيج النابض المتنوع من السكان الإيطاليين والفرنسيين والمالطيين وغيرهم من الأوروبيين، كانت تونس على وجه الخصوص تربة خصبة لهذه المثل الليبرالية. وإقرارًا للحقيقة نقول أن تلك اللحظة كانت عابرة وكانت الإصلاحات – من الأزياء الحديثة إلى الدساتير المكتوبة- في كثير من الأحيان مجرد تقليد سطحي للأسلوب الغربي. ولكن على الرغم من ذلك لا زال العديد من الإصلاحيين والديمقراطيين العرب اليوم يشيرون إلى هذا العصر الليبرالي قصير الأمد كدليل على أنهم يرجعون إلى أصولهم، وليسوا يسبرون غور أرض جديدة.

ومثل السُّرج المضيئة الأخرى في العصر الليبرالي، عرف سي علي بأنه رجل عصري مستنير يقبل الحوار ولا يرفض وجهات النظر المعارضة. وقد حرص هو وزوجته ليليا باكوش، وهي ابنة لواء تونسي معروف، على غرس هذه المثل في أبنائهما الخمسة، ولذا فقد كان هو وزوجته محل الثناء الدائم من أفراد العائلة. وبعد مسيرة سي علي الطويلة والمثمرة في الحكم، آثر هو وزوجته التقاعد والانتقال للعيش في مزرعة بمساحة 740 فدانًا كان قد اشتراها في منتصف العشرينيات من القرن الماضي. وهناك قضى سي علي أكثر من عشرين سنة عاشها كمزارع رفيع المنزلة بعيدًا عن هيجان الحركة القومية في تونس، حيث كان هناك أناس من جيله – والذين رأوا أنه ليس هناك ما يمنع من الجمع بين وعيهم القومي وولائهم للبلاط الملكي – يتعرضون للطرد أولاً من الحياة السياسية ثم من حركة التاريخ. وفي عام 1954، توفي سي علي قبل عامين من قيام حركة الاستقلال التونسي باستبدال نظام الأسرة الحاكمة بالنظام الجمهوري.

وتقع مزرعة أسرة سكات في بئر حليمة في قاعدة جبل زغوان الشاهق الذي يبلغ ارتفاعه 4248 قدمًا، في الوادي الذي يحمل اسم الجبل، وهو وادٍ واسع خصب يقع جنوب تونس ينتج الحبوب وتستمد منه تونس معظم غذائها. ويحظى جبل زغوان بأهمية كبيرة، حيث إنه كان مصدرًا للمياه العذبة في مدينة قرطاج القديمة، وهي المنافس التاريخي لروما للسيطرة على البحر المتوسط. وحتى اليوم، ما زالت هناك على الطريق المؤدي إلى تونس أجزاء من قناة قديمة كان يبلغ طولها 40 ميلاً.

وعندما قام سي علي بشراء المزرعة، كانت تجري بها بالفعل جميع العمليات والأنشطة الزراعية. وعلى الرغم من أن حقول القمح كانت تغطي معظم الأرض، إلا أنه كانت هناك مساحة لمئات من الأغنام وبساتين الزيتون وأشجار الموالح. وكان هناك أيضًا وادٍ صغير يجري وسط الأراضي ويغذي البئر التي كانت مقامة في الجزء الخلفي من الحديقة الكبيرة التي كانت تمتد على مساحة تزيد على مائة ياردة من تحت نافذة غرفة النوم الرئيسية في المنزل الرئيسي.

وكان ما يميز مزرعة سكات من بين المزارع الأخرى في وادي زغوان هو الشكل المعماري للمزرعة الذي كانت تتضح به ملامح الطراز الإسباني. فقد تم بناء المزرعة على مساحة مربعة بفناء واسع يقع في آخره المنزل الرئيسي، كما كانت هناك جراجات وحظيرة وغرف للتخزين وأبنية أخرى تملأ الأركان الأربعة. وكان من أروع ملامح المزرعة تلك القلاع والأبراج الصغيرة والمتاريس والبرج الذي كان يعلو جدران المزرعة. وداخل المنزل الرئيسي، كان يزين الردهة المركزية سقف على ارتفاع حوالي عشرين قدمًا، كما كانت هناك غرف مؤدية إلى جميع الجوانب. وكان الباب المؤدي إلى كل غرفة مزخرفًا بقرميدة مرصعة تعلو إطار الباب. وفوق كل باب كان هناك نقش باللغة العربية به تضرع إلى الله بالخير والسعادة لكل من يسكن ذلك المكان.

ولعل سائلاً يسأل: لماذا قدمت هذه الرواية المفصلة عن مزرعة سي علي، والإجابة هي أن هذه المزرعة هي التي حدثت بها هذه القصة. لقد قمت بزيارة هذا المكان في مايو من عام 2004 في صحبة كمال سكات الابن الأكبر للهادي، ابن سي علي الذي وقعت عليه مسئولية رعاية المزرعة. وكنت قبل ذلك ظللت أبحث عن أقارب لسي علي، ولكن دون فائدة. وبضربة حظ، عرفني أحد زملائي التونسيين المقربين إلى كمال بعد أن أدرك أنه هو وكمال قد تحدثا في نفس الموضوع أثناء احتساء القهوة في مقهى فخم في المرسى، وهي ضاحية أنيقة في تونس. وعندما رأيت المزرعة وجدتها في حالة متهالكة، وكأنها مربى ماشية ريفي متداع للسقوط مر عليه الدون كويكزوت بالصدفة في رحلاته بالأندلس. لكن لا شك أنه منذ سبعين عامًا عندما جاء سي علي ليستقر في هذه المزرعة ويحيا حياة المزارع ذي المكانة الرفيعة والأصل الكريم، كان هذا المكان جنة بحق.

ومن التفاصيل الغامضة في المذكرات التي كتبت بعد الحرب وغيرها من المصادر، كانت أحداث قصة سي علي كما يلي: في مرحلة حاسمة من المعركة التي كان الهدف منها الاستيلاء على تونس، احتدم القتال في وادي زغوان. ومع المدافع التي تطلق النيران بكثافة والقنابل التي تسقط من حولهم في كل الاتجاهات، قامت مجموعة من حوالي 60 من العمال اليهود في أحد معسكرات العمل القريبة لقوات المحور بانتهاز فرصة المعركة ولاذوا بالفرار. وأثناء بحثهم عن مكان يختبئون به، وجدوا أنفسهم يعبرون بوابة مزرعة سي علي التي كانت تحيط بها الأسوار. وعندها تحول الوزير السابق في الحكومة إلى شخص آخر أقرب إلى أصحاب الوسا القدامى في الريف، ففتح منزله لهم جميعًا، وقدم لهم الطعام والمأوى، ووفر لهم الرعاية والأمان حتى استولت قوات الحلفاء على وادي زغوان في طريقها إلى تونس وبنزرت. فبفضله، نجا هؤلاء الستون من محنة كانت ستكون لولاه محنة خطيرة، وربما محنة مميتة.[45]

لقد كان ما يدفعني إلى الذهاب إلى مزرعة سي علي في بئر حليمة هو أملي في معرفة المزيد. أما كمال فقد وجدت فيه مضيفًا حريصًا على كرم الضيافة، وأثناء مرافقته لي في التجوال عبر المزرعة، قدم لي كمال بعض المشاهد التمثيلية اللطيفة التي تعرض للمواقف البسيطة التي ظهرت من خلالها رحمة وعطف جده- تجاه العاملين والجيران وغيرهم- مما أدركت من خلاله الدافع الذي جعل سي علي يعامل العمال اليهود بكل هذا الكرم. كما أن زيارة المزرعة نفسها ورؤية جغرافيتها جعلني أدرك بشكل أوضح الدافع الذي جعل سي علي ينتهز الفرصة لمد يد العون والمساعدة لليهود ممن هم بحاجة لذلك.

أراني كمال أن مزرعة سي علي تقع على بعد بضع مئات من الياردات من موقع مهبط صغير للطائرات، وأخبرني أن قوات المحور كانت قد بنت هذا المهبط بشكل سريع في بداية عام 1943. وهذا المهبط هو أول منشأة على الجانب البعيد من طريق انتقالي يفصل المزرعة عن الأرض التي بها المهبط. وكان قد تم إرسال العمال اليهود من تونس إلى زغوان في البداية لبناء المهبط، ثم بعد ذلك لتنظيفه من الحطام الذي سببته قنابل الحلفاء. وحسب بعض الأقوال المعاصرة حينذاك، كانت زغوان واحدًا من أسوأ مواقع العمل، وخاصة في الأيام الأولى من الاحتلال، حيث كان يتم حشد اليهود في حظائر الطائرات تحت السماء المفتوحة حيث يتعرضون للبرد والأمطار.[46] وبعد أن ضاق خناق الحلفاء حول تونس، كان وادي زغوان على خط النار. وسواءً كان العمال اليهود قد فروا بالفعل أم وجدوا أنفسهم محاصرين وسط المعركة فهو أمر لا يمكن تبينه، ولكن الأمر الواضح بالفعل أنهم قد شقوا طريقهم عبر حقول القمح ولجأوا إلى البوابات المهيبة التي تشبه الحصون لمجمع سي علي.

ولا شك أنهم كانوا محظوظين لأن أقدامهم ساقتهم لطرق باب سي علي. فليس كل مالكي الأراضي كانوا سيبدون هذا الاستعداد لتوفير المأوى ليهود هاربين من معسكر للعمل تابع لقوات المحور. وبوجه عام، كانت تونس مسرح الأحداث لمعارك غير منتظمة الوتيرة دارت رحاها لأشهر عديدة، فقد كانت كل من قوات المحور وقوات الحلفاء تفوز ببعض الأراضي ثم تخسرها ثم تفوز بها مجددًا، ولم يكن أحد يعرف على وجه التحديد أي الجانبين سيتفوق على الآخر – أو حتى متى. أما هؤلاء اليهود الذين وصلوا إلى مزرعة سي علي، فقد وجدوا ما كانوا يبحثون عنه – بل وأكثر.

ومن زيارة في الربيع إلى زغوان اليوم، كان من السهل بشكل مدهش أن أكون صورة ذهنية عن سي علي سكات، ذلك الرجل العربي النبيل الذي كان في السابق أحد رجال الدولة، والذي فتح أبواب ضيعته الكبيرة لمجموعة من اليهود الهاربين جاءوه في ملابس قديمة مهلهلة. وقد كان الفناء الذي تم بناؤه على الطراز الإسباني يشتمل على

مجموعة كبيرة ومتداخلة من الجراجات وغرف التخزين والخزانات وغيرها من الأماكن التي تصلح للاختباء. وكان المنزل الرئيسي نفسه يحتوي على غرف ذات سقف مرتفع الواحدة منهن تلو الأخرى، وكان يوجد في جميع الغرف نفس النقش العربي الذي يعلو الرؤوس. وخلف المنزل الرئيسي، كانت هناك حظيرة للحيوانات، وكانت حظيرة كبيرة وواسعة وعميقة، والتي من الأغلب أن بعضًا من المجموعة وجد فيها مكانًا جيدًا للاختباء. إن ستين من الرجال الهاربين ليس عددًا بسيطًا، ولكن مجمع سي علي استطاع أن يؤويهم جميعًا.

وعلى الرغم من أن المزرعة قد فقدت بعض رونقها، إلا أنها لم تفقد شيئاً من عبقها. فبينما كنت أسير مع كمال في أرض المزرعة، جاءت إليه زوجة أحد العاملين لديه وقبلت يده، وهو المشهد الذي جعلني أتخيل زوجات العاملين وهن يقبلن يد جده منذ عقود مضت. ثم طلب مني كمال ألا أتناقش معه فيما كان يبديه جده من معاملة رحيمة تجاه اليهود أمام عمال المزرعة، وذكر أن السبب أنهم لن يفهموا، قالها وقد امتزج صوته بمسحة من الحزن. ولكني رأيت أن أواصر الولاء والشرف التي كانت هي أساس العلاقة بين جده والعاملين لديه في ذلك الوقت، كانت تقتضي بأنه لو طلب من عماله في المزرعة فتح البوابات وتقديم القهوة وإحضار البطاطين للقادمين الجدد، فلا شك أنهم كانوا سيلبون الطلب في سرعة وصمت.

ولعل من أهم جوانب قصة سي علي – كما رواها لي كل من كمال أثناء زيارتي للمزرعة في بئر حليمة، وأخوه الأصغر علي الذي احتسيت معه الشراب في أحد مقاهي Left Bank في باريس بعد هذه الزيارة بثمانية عشر شهرًا – أنه لم يسمع أي فرد من أفراد العائلة على الإطلاق بالكرم الذي اشتهر به جدهم في معاملته مع اليهود. وحتى مع وجود إشارة إلى مآثر سي علي في كتابين على الأقل من الكتب التي تصف التجارب التي مرت بها الطائفة اليهودية في تونس وقت الحرب، فإن أحدًا من أفراد الأسرة لم يول ذلك الموضوع أي اهتمام. وحسب ما ذكره كلُ من الأخوين، لم يقم أي من الهاربين بالاتصال بأسرة سكات بعد الحرب للتعبير عن امتنانه. ومن الواضح أنني كنت أول شخص يخبر آل سكات بهذه القصة عن العمل البطولي الذي قام به سي علي، ولكن بعد أن مر أكثر من ستة عقود على تلك الواقعة.

وربما كان من العجيب بشكل أكبر هو أن كلاً من كمال وعلي كان له نفس رد الفعل عندما وصفت ما حدث في بئر حليمة في عام 1943. فقد علق كل منهما بأن قصة كرم جدهما تجاه اليهود تبدو حقيقية، وذلك لأنها تبدو- وبشكل غريب - مشابهة لقصة أخرى تعرفها عائلة سكات، وهي قصة تحكي عن كرم جدهما تجاه الألمان.

يقول كمال وعلي اللذان أخبرني كل منهما بالقصة مستخدمًا نفس الكلمات والعبارات لدرجة أنه قد بدا لي أن هذه قد أصبحت الرواية المقبولة لدى العائلة، أن مجموعة الرجال ذوي الملابس المهلهلة الذين طرقوا بوابة مزرعة جدهم كانوا جنودًا ألمان لجأوا إلى المزرعة بعد انتصار قوات الحلفاء، ولم يكونوا مجموعة من اليهود الهاربين من معسكر للعمل وصلوا إلى المزرعة قبل ذلك. فعندما قامت قوات الحلفاء في النهاية بطرد الألمان من تونس، مما أدى إلى انسحاب عشوائي لأكثر من 200.000 جندي ألماني من شبه جزيرة كاب بون إلى إيطاليا، تخلف الكثير من الجنود. فقامت مجموعة من القوات الألمانية المهزومة – وأوضح سكات الأصغر أنهم كانوا جنودًا عاديين، وليسوا من رجال القوات الخاصة - بالذهاب في طريق مجمع سي علي. فقام سي علي بفتح بوابات المزرعة لمجموعة الجنود، ووفر لهم المأوى، وجعلهم يقومون ببعض الأعمال في المزرعة حتى لا يتم القبض عليهم كأسرى حرب. أما المدة التي قضوها في المزرعة فلا يمكن تحديدها بالضبط.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن: هل كانت هناك بالفعل مجموعتان من الهاربين الذين لجأوا إلى مزرعة سي علي؟ أم أن قصة القوات الألمانية هي قصة مختلقة، تأخذ في اعتبارها المشاعر السياسية الحساسة ضد الفرنسيين في تونس، وتم اختلاقها للتغطية على الكرم الذي أظهره سي علي تجاه اليهود؟ نقول بحق إنه ليس من الهام معرفة ذلك. والمؤرخان اليهوديان اللذان كتبا عن تونس في وقت الحرب منذ أكثر من نصف قرن مضى ليس لديهما سبب يدفعهما لاختلاق قصة إنقاذ سي علي لليهود بهذه الطريقة الشجاعة، لذا فليس هناك ما يجعلنا نشك في أن هذه القصة قد حدثت بالفعل.[47] وكون سي علي لم يتحدث مطلقًا عن ذلك، وكون هذه القصة لم تكن مطلقًا جزءًا من تراث أسرة سكات التي تشتهر بالفخر والاعتزاز، وكون هذه القصة قد استبدلت في تاريخ العائلة بقصة أخرى أصح من الناحية السياسية عن كرم أظهره الجد في وقت الحرب...كل ذلك لا يؤثر على مصداقية تلك القصة. وحتى إن كانت القصتان صحيحتين، فإن مجرد فكرة أن تكون مزرعة سي علي مكانًا يختبئ فيه مجموعة من المجندين الألمان

الشباب المذعورين بعد هزيمتهم في مكان يقع على بعد قارة من بيوتهم ومنازلهم هو أمر لا يقل من أهمية ما فعله سي علي تجاه اليهود. بل إنها تؤكد على ما كان يحمله بين جنبيه من مشاعر إنسانية للجميع.